MIKAILALSYS
Journal of Multidisciplinary Sciences

e-ISSN : 2987-2286
p-ISSN : 2987-3924

Index : Dimensions, Scilit, Crossref, Garuda, Semantic, Lens,Google Scholar,Base, etc

https://doi.org/10.58578/mikailalsys.v3i1.5249

العمارة الإسلامية بين الثوابت الحضارية والتأثيرات الخارجية: دراسة تحليلية في الأبعاد البيئية والاجتماعية والتاريخية

Islamic Architecture between Civilizational Constants and External Influences: An Analytical Study of Environmental, Social, and Historical Dimensions

Mohamed Tribak
Abdelmalek Essaadi University, Tetouan, Morocco
tribak_moh@yahoo.fr

Article Info:

Submitted:	Revised:	Accepted:	Published:
Feb 24, 2025	Mar 9, 2025	Mar 21, 2025	Mar 26, 2025

Abstract

This study investigates Islamic architecture as an integrated civilizational product shaped by a complex interplay of religious, social, political, economic, and environmental factors. The significance of the research lies in highlighting the distinctiveness of Islamic architecture, which is not merely a stylistic or aesthetic accumulation, but a powerful reflection of the Muslim Ummah's identity and interaction with its context. The study aims to analyze how these factors have contributed to the formation of a unique architectural language and to assess the extent of influence from prior civilizations such as the Roman and Byzantine, without compromising Islamic values. The central research question explores whether Islamic architecture can authentically represent the Muslim identity and whether it can serve as a foundation for

Mikailalsys is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-ShareAlike 4.0 International License

contemporary architectural practices. Using an analytical and critical methodology, the study examines architectural models in their respective contexts. The findings show that Islamic architecture embodies a balanced civilizational awareness, combining functionality and beauty, and offering environmentally conscious and value-driven alternatives for modern architectural development.

Keywords: Islamic Architecture; Identity; Environment; Civilizational Interaction; Building Factors

الملخص

يتناول هذا البحث موضوع العمارة الإسلامية بوصفها نتاجًا حضاريًا متكاملاً تشكل بفعل عوامل متعددة، دينية واجتماعية وسياسية واقتصادية وبيئية. وتكمن أهمية البحث في إبراز خصوصية العمارة الإسلامية التي لم تكن مجرد تراكمات فنية أو شكلية، بل انعكاس لهوية الأمة الإسلامية وتفاعلها مع محيطها. يهدف البحث إلى تحليل الكيفية التي تداخلت بها هذه العوامل في تكوين الطابع المعماري الإسلامي، وإلى الكشف عن حجم التأثر بالحضارات السابقة كالرومانية والبيزنطية دون فقدان الروح الإسلامية المميزة. وتتمثل إشكالية البحث في التساؤل حول مدى قدرة العمارة الإسلامية على التعبير عن هوية الأمة، ومدى قابليتها لأن تُستثمر في المعمار المعاصر بوصفها نموذجاً متكاملاً. وقد تم اعتماد المنهج التحليلي النقدي لدراسة النماذج المعمارية في سياقاتها المختلفة. وتوصل البحث إلى أن العمارة الإسلامية تجسدت في وعي حضاري متوازن، يربط بين الوظيفة والجمال، ويستثمر البيئة والموارد بأسلوب يعكس روح الإسلام ويقدم بدائل معمارية معاصرة تحمل القيم ذاتها.

الكلمات المفاتيح :العمارة الإسلامية؛ الهوية؛ البيئة؛ التفاعل الحضاري؛ عوامل البناء.

المقدمة

مما لا شك فيه أن العمارة والفنون في أي حضارة كانت، تخضعان لعوامل عدة في المسار والتوجه، وهذه العوامل تؤطرهما منذ النشأة وعبر مراحل التطور، إلى أن يكتسبا شخصيتهما التي تميزهما عن غيرهما من الفنون والمعمار في مختلف الحضارات. وللعوامل والظواهر المناخية

والجغرافية والجيولوجية دور هام في تطور الإنسان والعمارة، مستحدثا مرافق متنوعة ومختلفة من العمارة، ومستفيدا من محيطه البيئي وتجارب من سبقه في تطوير طرق إنشائها وبنائها لخلق بيئة سكنية مناسبة وملائمة لاحتياجاته (شافعي، 1982: 236).

وقد تأثرت العمارة الإسلامية بعدة عوامل نظرية وفلسفية، منها الدينية والتقاليد والأعراف التي تؤثر بشكل مباشر وقوي في المنشآت الدينية من مساجد وأضرحة وغيرها، وكذلك في نوع وشكل بناء المسكن والمرافق الاجتماعية. وهذا التفاعل لازم العمارة الإسلامية في مختلف مراحل تطور العمران والفنون التي ترتبط به من زخرفة وغيرها.

كما أن للعوامل السياسية والاجتماعية والحضارات السالفة دورها في اختيار المواضع الهندسية وأشكالها، والمواد المستعملة وزخرفتها. وقد استعانت العمارة الإسلامية في كل مراحل تطورها بالاقتباس من حضارات أخرى فيما يلائمها من عناصر معمارية، فيتم إدماجها في منشآتها متأثرة بالنموذج من أسلوب البناء والتشييد والزينة.

ومما يستنبط من دراسة المعالم التاريخية للعمارة الإسلامية من قبل المعماريين أن هذه العمارة لم تعتمد في نشأتها على مجرد تخطيط واختيار مواضعها وعناصرها، بل تأسست أيضا على قواعد وجهت العمارة وأخضعتها لأحكام ملزمة، وهذه القواعد هي ضمنيا ما يمكن أن نسميه قوانين البناء، وهي أحكام البنيان التي يؤطرها فقه العمارة، وهي في الأصل أعراف توارثتها الأجيال وجهت العلاقات بين الأشخاص فيما بينهم، وبينهم وبين الحاكم، لأنها صيغت وفق تراكم الخبرات والتجارب، إضافة إلى ما قرره الفقهاء وفق قواعد التشريع الإسلامي (أكبر، 1992: 19).

إشكالية البحث

إن موضوع العمارة الإسلامية ما زال يحتاج إلى مزيد من العناية والبحث عن العوامل المختلفة التي أثرت فيها، وساهمت في تطورها. وهذا يدفعنا إلى التساؤل عن مدى استجابة هذه

العمارة للجمع بين البعدين الوظيفي والجمالي مع التعبير عن الهوية الإسلامية. ثم هل كانت العمارة الإسلامية مجرد محاكاة للعمارة في الحضارات السابقة؟ أم أنها أثبت وجودها بما لها من خصوصية، ولا يمنع ذلك من التأثير والتأثر؟

أهداف البحث

من خلال هذا البحث، أريد تحقيق جملة من الأهداف الأساس التي مثلت الدافع الأساس للقيام به. فما من شك أن خدمة المجتمع بأبحاث تعود عليه بالنفع لها أهمية كبرى. لأجل ذلك، ينبغي أن تنصب الدراسات الأكاديمية على هذه القضايا التي تربط الإنسان المسلم بهويته، وفي الوقت ذاته يلمس الجانب الإيجابي للتفاعل بين الحضارات دون الذوبان في الآخر، بل يحافظ على خصوصيته (Klaina, 2024). على هذا الأساس، يمكن تحديد هذه الأهداف على الشكل الآتي:

1. تسليط الضوء على أثر العوامل السياسية والدينية والاقتصادية التي ساهمت في تشكيل ملامح الحضارة الإسلامية.
2. رصد مظاهر التأثر والتفاعل بين العمارة الإسلامية والعمارة في الحضارات الأخرى، لا سيما الحضارة الرومانية والبيزنطية، مع إظهار عناصر التمازج والخصوصية.
3. إبراز الخصوصية المعمارية الإسلامية التي شكلت هوية متميزة للمسلم.
4. التنبيه على بعض الأحكام الفقهية المؤطرة للبناء في الحضارة الإسلامية.

منهج البحث

اعتمدت في هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي النقدي، وذلك عند رصد العوامل المؤثرة في تطور العمارة الإسلامية، وتحليل مظاهرها في النماذج المعمارية المختلفة، مع المقارنة بين التأثيرات الخارجية والخصوصيات الإسلامية.

المبحث الأول: العوامل الدينية والاجتماعية المؤثرة في العمارة الإسلامية

أولا: العوامل الدينية

كان للعامل الديني أثر واضح في المنشآت الإسلامية، ابتدأت تتبين معالمه انطلاقا من بناء دار الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ومسجده، حيث كانت البساطة عاملا أساسا في وضع تخطيط منشآت بدون أدنى تعقيد في الشكل والبناء، فكان مسجد الرسول أنموذجا سارت على نحوه المساجد من حيث الشكل في كافة بلاد المسلمين، إلى أن بدأت تتطور مع تحسن الظروف الاقتصادية للدولة الإسلامية.

انتهج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون من بعده البساطة في البناء والتشييد، وكانت مساكنهم بسيطة، استخدمت فيها الخامات البدائية، كما اكتفوا ببناء أماكن بسيطة للعبادة تفي فقط بإقامة الشعائر الدينية. لذلك، نجد أن تصميم أول مسجد إسلامي شيد في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بسيطا في عمارته، فمسجد المدينة الذي كان ملحقا بمنزله صلى الله عليه وسلم، كان عبارة عن مساحة مربعة تحيط به جدران من الطين والحجر، ويغطَّى جزءٌ من سقفه بسعف النخيل المغطى بطبقة من الطين. ويرتكز هذا السقف على عدد من جذوع النخيل، وجعل لها أبوابا ونوافذ متقنة للتهوية، تيسر الدخول إليه والخروج منه (عزب، 1997: 152). وكان الغرض من إقامته هو جمع المصلين في مكان واحد متسع ليقفوا صفوفا في اتجاه الكعبة بعد ما كانت قبلة الصلاة تجاه بيت المقدس. غير أن استغراق الرسول صلى الله عليه وسلم في أداء رسالته، وانهماك أصحابه والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم من بعده في متابعة نشر الدين الإسلامي، لم يتح لهم إضافة أمور كثيرة إلى حضارة تلك البلاد من ناحية العمارة والفنون (شافعي، 1982: 64)، لكنها خضعت مع مرور الزمن للتوسعة والعناية واختيار مواد البناء الأكثر صلابة كالحجارة والآجر، وزينوها لتلائم ما وصل إليه المسلمون من غنى وقوة (السراج، 2017: 27).

وكان للعامل الديني الدور الأهم في استمرار الروابط بين الغرب الإسلامي وشرقه وتمتينها رغم ما كان يفرقهما من اختلافات سياسية ومحاولات الانفصال عن الخلافة الإسلامية بالشرق، فبقيت أواصر القربى والدم العربي واللغة والدين والتقاليد الإسلامية التي انتقلت مع الموجات الأولى إلى الغرب تجمع ما بين المسلمين في المشرق والمغرب. كما بقيت الصِّلاتُ بينهم والزيارات والرحلات لا تنقطع، خاصة من الغرب إلى الشرق، وذلك قصد أداء مناسك الحج أو لأغراض أخرى (شافعي، 1982: 278). وبذلك، يبقى العامل المؤثر في وحدة الطابع الإسلامي الذي يميز العمارة والفنون الإسلامية في سائر الأقطار العربية من الشرق إلى الغرب هو العامل الديني. والتاريخ يشهد على نشأة مدن عديدة كان لوظيفة الدين دورها في قيامها، مما يبرز أهمية العامل الديني في ظهور وتكوين المدينة الإسلامية (الأشعب، 1982: 8).

وتتأثر العمارة الإنسانية عامة بالفكر الديني الذي يتدين به القوم، وكذا الثقافة والأعراف السائدة، إذ يظهر أثر ذلك واضحا في معالم العمارة، سواء كانت دورا للعبادة أو لوظيفة أخرى. وقد ظهر ذلك جليا فيما ورثته الإنسانية من تراث فرعوني أو إغريقي أو فارسي وغيره. غير أن الدين الإسلامي لم يتجلَّ فيما ورثناه من آثار عمرانية وفنون وزخرفات على الجدران فقط، بل صاغ هذا الدين فكر الإنسان وصبغه بعقيدته وروحه، فأنتج عمارته وفنونه بإيحاء من هذه الروح الخلاقة والمبدعة، فابتكرت الأذهان نماذج معمارية لا يخطئ الناظر إليها عند نعته لها بالعمارة الإسلامية لما تتميز به من خصوصية واستقلالية عما وجد من أنماط معمارية أخرى.

لم يلجأ المسلمون إلى اقتباس أفكار لتخطيط مساجدهم من معابد المسيحيين، فقد بنى عبد الملك بن مروان المسجد الكبير في دمشق لمنع المسلمين من الشغف بالكنائس، وكذلك هو الشأن بالنسبة لقبة الصخرة التي جاءت تضاهي كنيسة القيامة (ابن الفقيه، 1985: 101). فكانت سقوفها بالذهب الأحمر، وأعمدة رواقها ذات تيجان مختلفة الطراز، بعضها كورنثي (التاج

الكورنثي: نوع من التيجان التي تعلو الأعمدة)، وبعضها مركَّب، وأقواس المثمن لا ترتكز مباشرة على تيجان الأعمدة، فكل عمود يعلوه مستقر حجري مكعَّب مرتكز على عارضة خشبية.

ثانيا: العوامل الاجتماعية

أثرت البيئة الاجتماعية بشكل كبير في كيفية نشوء المدينة الإسلامية، إذ تتميز كل طبقة اجتماعية وكل قبيلة بطريقتها في الحياة من حيث السلوك والعادات والتقاليد والخصوصيات. ففي التجمعات الإسلامية القديمة، اعتمد المجتمع على التنظيم الاجتماعي، فالمجتمع العربي قبل الإسلام كان مجتمعا قبليا يعتمد على الترابط الأسري (عثمان، 1988: 51)، بحيث نجد أن لكل أسرة عاداتها وتقاليدها ومعتقداتها وأساليب معيشتها، وتتميز كل قبيلة بخصوصياتها. كما أثرت الحياة الدينية والفكرية تأثيراً واضحاً في الحياة الاجتماعية، لا سيما أن الدين الإسلامي ينظم حياة المجتمع في أدق تفاصيله، فهو يشكل الإطار العام لسلوك المجتمع داخل المدينة. وكانت الحياة الاجتماعية تختلف بين المدن التي بناها المسلون في الكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان مثلا وبين المدن التي فتحها المسلمون لاحقا والتي كانت تضم أجناسا أخرى فارسية وقبطية وآرامية وبربرية، ولولا التسامح الديني الذي كان ينفتح عليها، لكان التعايش فيها صعبا (شاكر، 1988: 16).

وفي هذا الإطار، كانت نظرة الرسول صلى الله عليه وسلم لصهر المسلمين مع المهاجرين والأنصار في بوتقة التآخي، وذلك ليذيب جميع عناصر التميز والعصبية القبلية، ومن ثم جميع الفوارق الاجتماعية، لا سيما وأن المهاجرين تركوا أهلهم وأموالهم خلفهم، وهذا سيشعرهم بالغربة وتدني مستواهم الاجتماعي أمام الأنصار الذين يعيشون وسط أهليهم وينعمون بالاستقرار النفسي والمادي. فكان التآخي بينهم غاية لتشكيل وحدة اجتماعية متماسكة تسودها المحبة والتآلف. ولأجل ذلك، اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من موضوع التآخي الذي أقامه بين المهاجرين والأنصار أساساً لمبادئ العدالة الاجتماعية التي قام عليها المجتمع الإسلامي. ولقد تدرجت مبادئ هذه

العدالة فيما بعد بشكل أحكام وقوانين شرعية ملزمة، ولكنها تأسست وقامت على حقيقة العقيدة الإسلامية لما كان لتلك الأثر الإيجابي في شد أزر المجتمع الإسلامي ودعم كيانه (البوطي، 1980: 121).

وتعبر حياة عامة الناس في المدينة الإسلامية عن الحياة الاجتماعية تعبيرا صادقا باعتبار اتساع نطاقها وترابط أفرادها بعدة روابط، بحيث تنتقل العادات والتقاليد عبر الأجيال، كما أنها تجسد الواقع الفعلي لحياة المدينة والتي تؤثر في تكوينها ومراحل تطورها. وتتجه دراسة الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية من منظور خاص يحاول الربط بين الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية وملاءمة تخطيط المدينة لممارسة الأنشطة الاجتماعية (عثمان، 1988: 55).

والمجتمع الإسلامي يتكون من ثلاث طبقات، طبقة الحكام ويمثلها الخليفة أو السلطان والولاة المعينون من قبلهم، ثم تأتي طبقة الوزراء ورجال الدولة والتجار والموسرون. وكان لهاتين الطبقتين النفوذ في توجيه الإنتاج الفني من حيث الكم والكيف. أما الطبقة الوسطى وطبقة العامة، فلم يكن لهما أثر محسوس في تطور الفن العربي الإسلامي. وهذا يتبين لنا من بقايا الآثار العمرانية والفنون التي لم يتبق منها إلا العمائر التي بنتها طبقة رجال الدولة والميسورين نظرا لقوة وصلابة هذه العمائر، بينما اختفت مساكن الطبقات الشعبية والعمائر الخاصة بها (شافعي، 1982: 268).

ولقد انعكس تطبيق القواعد الإسلامية الاجتماعية انعكاساً مباشراً على الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية، وأولى هذه القواعد وأهمها هو مبدأ «لا ضَرَرَ ولا ضِرار». وهذه القاعدة المتعلقة بمنع الضرر عن الناس تندرج تحتها عدة فروع فقهية، وقد حكمت إلى حدٍّ بعيد التخطيط المادي للمدنية الإسلامية، حيث إن الفقهاء حددوا مظاهر الضرر المادي الناتج عن تفاعل النشاطات داخل التكوينات المعمارية للمدينة الإسلامية. وتطبيقاً لمنع هذا الضرر في تخطيط

المدينة الناشئة، وجب إبعادُ المنشآت التي تتسبب في ذلك عن الوحدات السكنية التي تشغل القطاع الأكبر من حَيّز المدينة. وهذه القواعد توضح ملاءمة التكوينات المادية للمدينة الإسلامية وتخطيطاتها، حيث تمارس نشاطات الحياة الاجتماعية، ومدى تأثر التخطيط بتلك الجوانب التي تحكم الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية. وتُعَدُّ المدينة المنورة أولى المدن الإسلامية التي بدأت فيها هذه الظاهرة (بن إدريس، 1982: 177).

ومن أهم القرارات التي اتخذتها الدولة الإسلامية في مهدها لتنظيم المجتمع الإسلامي هو وثيقة المعاهدة التي كتبها الرسول صلى الله عليه وسلم بين الأنصار والمهاجرين واليهود. وهي تنظم علاقة المسلمين بعضهم ببعض، وعلاقتهم بالطوائف الأخرى بالمدينة، والمتمثلة في اليهود بما لهم وما عليهم من واجبات وحقوق داخل دولة الإسلام. وقد نصت بنود هذه الوثيقة على عوامل الوحدة ونبذ التفرقة بين أطراف المجتمع (حميد الله، 1985: 64).

المبحث الثاني: العوامل السياسية والاقتصادية

أولا: العوامل السياسية

يقصد بالعوامل السياسية مسؤولية الحكم والعلاقات العامة، سواء كانت علاقات داخلية أو خارجية. فإذا تأسست السياسة الداخلية بين الحكومة والشعب على أساس من الديموقراطية والحرية، فإن ذلك ينعكس على النشاط الفكري وحرية الإبداع، ومن ثم، على فنون العمارة والإنشاء. أما إذا كان أساس هذه العلاقة الظلم والاستبداد والفساد، فالنتيجة تكون الانحطاط والتدهور في جميع مناحي الحياة وأنشطة المجتمع (حمودة، 1987: 86).

تقوم العوامل السياسية بدور كبير في تطور النماء والإبداع في مجال العلوم والفنون المعمارية أو تراجعها، وهذا يعود إلى الأنظمة السياسية التي تسود البلاد وما يتبعها من سلام

واستقرار أو فتن وحروب. فالهدوء والاستقرار يترتب عنه انتشار الأمن والأمان، وتتجه الدولة نحو بناء المجتمع ونشر العلم والمعرفة، وتتجه فنون العمارة نحو الأغراض المدنية العامة والخاصة، وتوجيه النشاط الفني نحو الإنتاج المدني الذي ينعش الحياة العادية. وعكس ذلك، فإن قيام الحروب أو وجود أخطار تهدد أمن الناس والبلاد كان يتطلب الاستعداد لدخول غمار الحرب أو مواجهة التهديد بها. ومن ثم، يتجه النشاط المعماري نحو بناء الحصون والقلاع وكل ما من شأنه حماية الحدود والبلاد، فتقل الإنجازات المدنية والفنية على اختلاف أصنافها (شافعي، 1982: 233). وما أن استقرت دعائم الدول الإسلامية حتى انعكس ذلك مباشرة على انتعاش الفنون والعمارة، وبدأ يظهر للفن الإسلامي الطراز والملامح الخاصة به، بدءا من العهد الأموي، وخاصة مع بناء المسجد الأموي وقبة الصخرة في بيت المقدس (وزيري، 2004: 21). وتتأثر العمارة بشكل بارز حسب المنهجية السياسية للدولة، فقد تميل إلى العمارة الدفاعية وبناء القلاع والأسوار، أو تهتم بالمشاريع الدينية والمدنية من بناء المساجد والمدارس والمارستانات والأسواق، والاهتمام بالبنيات التحتية من طرق وقناطر وشبكات الصرف الصحي وغير ذلك. فالعمارة هي تعبير لسياسة الدولة، والوجه الذي يبرز مدى قوتها وهيبتها. وهذا ما يفسر ما يحدث من تغيرات في النمط المعماري بتغير السلطة الحاكمة، لأن فنون العمارة تعكس التوجه السياسي والفكري والعقدي للدولة.

ثانيا: العوامل الاقتصادية

كان للعوامل الاقتصادية أثرها في الاستقرار والاهتمام بالتوسع العمراني والإبداعي في البقاع التي حلّ بها المسلمون. فعندما يتمكن الإنسان من تأمين الغذاء من مصادر موثوقة بالاعتماد على الزراعة وتربية الحيوانات والاستفادة من لحومها وحليبها وصوفها، فإن ذلك يؤدي إلى الاستقرار والمكوث في مكان واحد طالما أن الزراعة تتطلب الاستقرار لتطوير الإنتاج.

وكانت بداية المسلمين بالمدينة المنورة تعرف تفاوتات من جانب مستوى العيش بين الأنصار والمهاجرين، لأن الأنصار كانوا مستقرين في بلدهم ولهم زراعتهم، وقد ترك المهاجرون كل ما يملكون وراءهم بمكة، ومن المهاجرين من كان محتاجا إلى مساعدة وتأمين موارد رزق، لا سيما أن خبرتهم كانت بالتجارة، ولم تكن لهم خبرة بالزراعة التي وجدوا عليها الأنصار، فلم يكن أمام الرسول صلى الله عليه وسلم إلا هذا التآخي الذي دمج فيه الأنصار والمهاجرين في حلقة اقتصادية واحدة جعلت الأوسيَّ والخزرجيَّ يزرع، والمهاجرُ يبيع أو يعمل بالأرض بالإيجار. وهذا كان من الأدوات الفاعلة والقوية لبناء الدولة الإسلامية الموحدة (عثمان، 1988: 54). وهذا يرشدنا إلى عامل مهم في حياة الدول، إذ بقدر ما يكون الاقتصاد قوياً ومحرراً من السيطرة والتبعية للغير، تكون الدولة موحدة وقوية. وبقدر ما يكون الاقتصاد ضعيفاً ومسيطراً عليه، تكون الدولة ضعيفة ومنهكة وممزقة ومهددة في كل حين بالجوع والحرمان وفقدان السيادة والسلطان (الموسوي، 1990: 193).

وتعد التجارة إحدى الوجوه الطبيعية للمعاش، وهي الزراعة والصناعة والتجارة. والعمل في الشريعة الإسلامية مصدر الإنتاج، وهو أهم وسيلة من وسائل تكوين الثروة، وهو أساس التملك، والأصل في خلق المنافع، ومن ثم الاستقرار (محيي، 1972: 153). وقد طور المسلمون تجارتهم لتوفير السلع والموارد التي يحتاجون إليها ولا يستطيعون إنتاجها، كالبهارات والقماش والمعادن وغيرها، وكان للتجارة أثر في زيادة ثروات المدن. ومع نمو الحضارات، ازدادت حاجة السكان إلى الموارد، مما أدى إلى تطوير التجارة. وقد مثلت التجارة حلقة وصل بين الحضارات المختلفة، وقوت سبل التواصل بينها والاستفادة من بعضها البعض، كالصين وبلاد فارس والهند. وكان العرب يتصلون بالهند بثلاث طرق أساسية، إحداها برية، وتمر بأهم المراكز التجارية، واثنتان بحريتان (لوبون، 2013: 541). وكان للمرأة العربية حضور وإسهام في ممارسة التجارة. ومن النساء اللائي اشتغلن

بالتجارة واتسعت ثروتهن حتى فاقت الرجال: أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، وكذلك سلمى بنت عمرو بن زيد أم عبد المطلب.

كما أن النشاط الزراعي لم يكن هامشيا، كما لم يكن للاستهلاك الذاتي أو للتبادل البسيط، وإنما كان نشاطا رئيسيا، وإليه يعود أحد أهم أسباب نمو النشاط التجاري في الجزيرة العربية (محسن، 1982: 38-55). وهذا يعود إلى اتساع الأراضي الزراعية، وتتركز في اليمن وعمان والبحرين وهجر واليمامة. وقد ذكر أهل الأخبار أن اليمامة من أحسن بلاد الله أرضا وأكثرها خيرا وشجرا ونخيلا. وفي الحجاز تمتاز الطائف ويثرب بغزارة الماء وخصوبة التربة، وقد اشتهرت بكثرة الفواكه وعناية سكانها بالأشجار المثمرة، وبجلب أنواع جديدة لغرسها، كما اشتهرت بإنتاج العسل فيها (جواد، 1993: 215). كما اشتهرت مختلف الدول الإسلامية بزراعة الحبوب والفواكه والقطن والأزهار والخضراوات والنباتات والحشائش (كمصدر للأدوية والعقاقير)، كما أدخل العرب تحسينات كثيرة على طرق الحرث والغرس والري. وقد نقل الأوربيون كثيرا من الزراعات وطرق الري إلى أوربا. كما أظهر المسلمون مهارتهم في الزراعة، وفي غرس البساتين، فلم تقتصر فلاحة البساتين على الفواكه، بل شملت الأزهار أيضا. أما بالنسبة للصناعة، فلقد أشاد القرآن الكريم بقيمة الصناعة ودورها في الحياة، وسميت سورة كاملة بـ(الحديد) للفت الأنظار إلى معدن الحديد، الذي له دور كبير في إقامة الصناعات (يحيى، 2019).

إن الطابع المعماري أو ما يسمى بالطراز أو النسق المعماري، خاصة فيما يتعلق بالعمارة الإسلامية، ما هو إلا نتيجة طبيعية لعدة عوامل مشتركة ومتفاعلة مع بعضها، انصهرت في بوتقة الانتفاع الكامل للمبنى، وأساليب البناء ومواد الإنشاء، وطبيعة الأقاليم أو المنطقة، ثم التقاليد والعادات. هذا بالإضافة إلى العوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والروحية ومستوى الثروة

المحلية. وذكر العالم ابن بصّال الأندلسي تفاصيل دقيقة عن أنواع الأشجار وكيفية غرسها والموسم المناسب للغرس (ابن بصال، 1995: 59).

المبحث الثالث: العمارة الإسلامية والعوامل الطبيعية

كانت بداية الحضارة الإسلامية ونشأتها في الجزيرة العربية، حيث نزل الوحي على أشرف المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، ووضعت انطلاقتها من الحضارة التي سادت في الجزيرة العربية، ثم أخذت تنمو في الأقطار التي فتحها العرب ودخلها الإسلام. وكان من الطبيعي أن يكون للإطار الجغرافي الذي نمت فيه الحضارة الإسلامية أثره في تشكيلها. وكانت المدن الإسلامية تقوم على أسس دفاعية يراعى فيها اختيار المواقع حسب الطبيعة الجغرافية والبيئية مما يلائم الحالة الصحية للناس والجند، ويسهل الاتصال والوصول إليها من مناطق أخرى عند الحاجة (الطبري، 1978، 33:2).

ومن الملاحظ أن هذا الإطار الجغرافي كان يشمل رقعة متصلة من الأرض تمتد بصفة أساسية من الهند شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، وأن هذه الرقعة من الأرض ذات تضاريس وأجواء مختلفة، مما يؤدي إلى تنوع شعوبها ونباتها وحيواناتها ومنتجاتها. كما أنها، بصفة عامة، على درجة كبيرة من الخصب والثراء، وتتميز باعتدال مناخها. وقد هيأ كل ذلك للحضارة الإسلامية التي نشأت في هذه الأقاليم أن تنمو في بيئة غنية خصبة مكتفية بذاتها.

أولا: العوامل الجغر افية

إذا نظرنا إلى المواقع التي قامت عليها المدن الإسلامية، نجد أن أغلبها تعود نشأتها إلى العامل الجغرافي، فهي تقع في الغالب على ضفاف الأنهار والبحيرات. لهذا، نجد أغلب الحضارات قامت على ضفاف مراكز المياه، كالحضارات المصرية والبابلية (فيفر، 1970: 429). ونجد في اختيار عمرو بن

العاص رضي الله عنه لبناء مدينة الفُسطاط على نهر النيل دافعا قويا لتحكُّم الطبيعة في اختيار موقع البناء، وهي بالتالي تشتمل على مجال كبير لتوسع المدينة من جهة الشمال، حيث بنيت القطائع ومدينة القاهرة في عهد الفاطميين (ناصف، 1999: 9).

ولم يكن اختيار مواقع المدن صدفة وبدون تفكير وتخطيط، بل اتخذ العقلاء كل الاحتياطات، ووضعوا شروطا يجب مراعاتها في تحديد مواقع المدن. وتتقدم هذه الشروط: اختيار الموقع الملائم للحياة والعيش للناس، فتقام في أعلى مكان من الساحل والجبال، ومواجهة لمهب رياح الشمال لكونها مفيدة للصحة (القزويني، 2007: 8).

ثانيا: العوامل المناخية

ترتبط العمارة بشكل قوي بالمناخ، فهو عنصر مقرر في طراز المبنى من حيث اختيار الموقع والاتجاه، وطراز البناء، وارتفاع الأعمدة، وسمك الجدران، وصلابة الأسس، وتوزيع المرافق وأحجامها، واختيار مواد البناء المستعملة. وكل ذلك تتحكم فيه أحوال موقع المشروع المناخية، إذ له دور كبير في قدرة الإنسان على العمل والحركة، كما يؤثر على تصميم المباني التي يسكنها.

ويعد الإشعاع الشمسي ودرجة حرارة الهواء والرطوبة والرياح والأمطار أهم العناصر المناخية؛ إذ هي التي تكون البيئة المناخية التي تؤثر تأثيرا مناسبا في الإنسان وفي مختلف أنشطته، وتحدد الحياة النباتية والحيوانية، كما أنها تؤثر في مختلف الأنشطة البشرية من صناعة ووسائل النقل والعمران (صفر، 1985: 9). ونستشهد هنا برأي المهندس الروماني فيتروفيوس الذي قال بالنسبة لمشاريع بناء المنازل السكنية: إذا أردنا أن تكون تصاميم المنازل الخاصة صحيحة، فعلينا أن ننتبه للمناخ، والمناطق التي ستشيَّد عليها، فطراز معين قد يبدو مناسبا للبناء في مصر، ونوع مختلف في "بونتوس"، وآخر في روما، وكذا الأمر مع أراض وبلاد ذات خصائص مختلفة، فقد يقع جزء من الكرة الأرضية مباشرة على امتداد مسار الشمس، بينما يقع الآخر بعيدا كل البعد عنه،

وهناك جزء آخر يقع بين الجزأين. وبما أن موقع الشمس بالنسبة إلى منطقة ما على الأرض يؤدي طبيعيا إلى اختلاف في الخصائص بسبب ميلان دائرة قبة السماء ومسار الشمس، فإنه يجب أن تتوافق تصاميم المنازل مع طبيعة البلد وتنوع المناخ واختلاف الخصائص الموضوعية (عابدين، 1914: 167). وهذا ما نلاحظه عند سفرنا إلى مناطق مختلفة، حيث نجد المنازل المكشوفة في المناطق الساخنة، بينما تكون في المناطق الباردة مغطاة بالأسقف بشكل كامل، وتتباين أشكالها حسب درجات الحرارة والاعتدال.

ثالثا: توظيف مفهوم البيئة في العمارة الإسلامية

اعتمدت العمارة الإسلامية بمختلف أنواعها، مهما كانت الوظيفة التي أنشئت لتحقيقها، على اعتماد المفهوم البيئي الإيكولوجي الإقليمي في خططها وتصاميمها، نظرا لكون المناخ هو العامل الأكثر ثباتا في الموقع حيث يوجد المبنى، وكونه جزءا من التركيبة الجغرافية للمكان؛ فبذلك يضمن مخطط المبنى الأجواء المناسبة للعيش المريح على مدار العام باختلاف فصوله؛ كما يضمن التخفيف من تكلفة تشغيل الطاقة للتسخين أو التبريد نظرا لوجود مناطق تهوية عميقة ومختلفة بواجهات المباني.

وقد حمل فن العمارة في ظل الإسلام تعبيرا معماريا جديدا، حيث ربط هذا الفن بين مسجد الكعبة، والكعبة في مكة. وامتزج التعبير المعماري الذي أحس به ساكن البادية من خلال صحن داره المكشوف بصلته بالسماء، مع التعبير المعماري الجديد المستوحى من صلة الإنسان بالأرض (ثروت، 1994: 20). أما واجهة الباب الخارجي، فجرت العادة رسمَ عقده من نوع حدوة الفرس، مؤطَّرا بإفريز أو حيز مستطيل يزين داخله بالزخارف الإسلامية المألوفة.

وعموما، مالت الجمالية المعمارية لواجهة البيوت نحو البساطة والتواضع والابتعاد عن استعراض مظاهر الغنى والتفاخر، فلم يكن خارج البيت يدل على غنى أو فقر أصحاب المنزل

عموما، وإن كان من الممكن في بعض الأحيان الاستدلال على ذلك من خلال التدقيق في العناية بنوعية ومهارة الزخرف البارز الذي يحيط بمنافذ الدار الخارجية فقط (مارتينث، 1991: 82).

ومن أجل الحفاظ على هذه الخصوصيات، لجأ المصمم إلى خلق مساحات خضراء بمحيط المبنى أو بعض جوانبه، فتكون النباتات مندمجة مع البناية ومنسجمة مع المحيط، حيث جعل تصميم البناية يتوسطه فناء مفتوح إلى السماء، وقد يضم مغروسات وأشجارا، وعند ذاك تتداخل كتلة المبنى مع كتلة نباتية مما يخلق طاقة وحيوية. وكانت طبيعة البيئة المحلية وما يتوفر فيها من مواد تشكل أساساً من أسس بناء البيت الإسلامي، فالحجارة والطين والجص والخشب والقصب حدده الزمن الذي يمكن أن تعمره البيوت أو المنشآت بسبب قدرتها على مقاومة ظروف الطبيعة التي تحكمت فيها (سيمون، 1991: 2).

وقد تضمن مسكن المسلمين أهم الثوابت والخصوصيات في العمارة، وجسد مفهوم البيئة في تصميمه، حيث ظهر حول فناء داخلي، قد تكون به نافورة أو شجرة، تطل عليه غالبية الغرف، مستمدة منه الهواء النقي والإضاءة المناسبة، مما مكَّن الفناءَ الداخلي من إيجاد مطل جميل وهادئ لأربع واجهات داخلية بدلا من واجهة واحدة تطل على الشارع بكل ما يشتمله من ضجيج وضوضاء (ابن الرامي، 1999: 33). وفي الفناء الداخلي مساحة مناسبة وآمنة للصغار يلعبون فيها تحت الإشراف المباشر للأسرة التي تقاسمهم المتعة بالمكان.

وتم تطبيق معايير للحفاظ على البيئة بمسكن المسلمين، وذلك باستخدام مواد البناء المحلية المنخفضة التوصيل الحراري، كالطوب والحجر، واستخدام الفناء الداخلي لتنظيم دخول الضوء والحرارة، وتوجيه فتحات المنزل في اتجاه الشمال ليستفيد من هبوب رياح الشمال المعتدلة والمنعشة والتي تقلِّل من درجة الرطوبة بالفناء والبيت، اعتماد أسلوب الزيادة في ارتفاع البناء من جهة الجنوب بهدف الزيادة في تدفق الهواء الذي يساعد على سرعة رفع الهواء الساخن اتجاه

السماء نتيجة اختلاف مستوى الضغط ليحل محله هواء عذب ومعتدل (خضر، 2003: 12). وتخضع النوافذ الخارجية إلى قواعد إنشاء بناء على أعراف سار الناس عليها، والتي تقضي بضرورة تحديد أماكنها بحيث لا تطل أي منها مباشرة على الجار المقابل، وألا تكون الأفنية الداخلية التي تقضي الأسرة فيها أوقاتها مرئية من الجوار، وذلك محافظة على حرمة صاحب البيت وخصوصيته.

أما من جانب الزخرفة، فقد اعتنى الفنان المسلم بالتفاصيل التجميلية المتكررة والمتكاثرة، والمتفرقة والمجتمعة، وبدقائق الزخرف من التشكيلات الهندسية والنباتية المجردة، وقد لا يعطيها الملاحظ أهمية إن هو لم يستحضر في هذا الشكل المحتوى الفلسفي الروحاني الذي يقوم عليه هذا الفن (عكاشة، 1994: 47-48).

المبحث الرابع: العوامل الخارجية

أولا: تأثير العمارة الرومانية في العمارة الإسلامية

ورثت العمارة الرومانية من الفنون المعمارية السابقة، لكنها أخذت طابعها الروماني المنفرد، حيث مال الرومان إلى نزعة المؤسساتية للدول، فبنوا هياكل ذات فراغات ضخمة لتستوعب أعدادا كثيرة من الناس، لأنهم كانوا يميلون إلى الانفتاح على المجتمع، مثل المسارح والمكتبات والأسواق والحمامات ودور القضاء والملاعب الرياضية والفرجة، وبنوا القناطر وجلبوا المياه من أماكن بعيدة بواسطة أنابيب من فخار. وساهم موقع إيطاليا الجغرافي، بحكم موقعها على البحر الأبيض المتوسط من ثلاث جهات، على تنمية العلاقة التبادلية في مختلف مناحي الحياة مع عديد من بقاع العالم، وخاصة في العمارة والفنون الأخرى، ونشر الحضارة والمدنية في مختلف البلدان (القحطاني، 2009: 23).

كما ساهم المناخ المتنوع بين البارد والمعتدل والحار، والطبيعة الجيولوجية للموقع في تنوع استعمال مواد البناء والزخرفة، فنجد العمارة الرومانية لم تعتمد في البناء على الرخام فحسب كما كان في العمارة الإغريقية رغم وفرته في البلاد، بل اعتمدت على الحجارة بمختلف أنواعها، والطوب والفخار والقراميد، وأصبحت الخرسانة من أهم المواد المستعملة نظرا لسهولة تمكين البنائين من اختيار الأشكال الصعبة في البناء وتنسيقها، وكذلك لوجود موادها الأولية بالجودة والكمية الكافية في الطبيعة. واستعملت نوع حجر "الترافيرتان" الأصفر المعروف بصلابته وجماله.

واستخدم الرومان أنواعا متعددة من القباب والأقبية التي شيدت بتقنيات مختلفة وبمواد متنوعة. كانت بعض من هذه القباب من ابتكارهم، وبعضها الآخر من ميراث العمارة التي سبقت الرومان، وبعضها الآخر كان نتيجة تأثير من المشرق، على الأرجح من إيران (Lancaster, 2010). وقد أتاحت العقود والقباب والقبوات للرومان خلق مساحات داخلية متسعة دون نقط ارتكاز لحمل الأسقف؛ ومكنت الخرسانة من خلق مساحات داخلية متسعة دون الاعتماد على دعامات لحمل الأسقف.

ومن الملاحظ في عمارة الرومان أن الأعمدة الرومانية أصبحت مخالفة لما كانت عليه عند الإغريق، لأن طول العمود عندهم كان يساوي ارتفاع السقف. أما عند الرومان، وخاصة بعد دخول استعمال العقود في عمارتهم، فقد أصبح يضاف إلى العمود من الأسفل كرسي حامل للعمود يشكل قاعدة مرتفعة له ومدرجة في بعض الحالات، كما أضيف لرأس العمود تاج مزخرف بحليات، ويغطي أربع واجهات عوض واجهتين في العمود الإغريقي. وبهذه الإضافات، أصبح العمود الروماني، ذو النظام الكورنثي، أجمل هيئة من الطراز الكورنثي الإغريقي (توفيق، 2000: 430).

وقد اهتم الرومان ببناء الحمامات، وكانت من أكثر المباني دلالة على حضارة الرومان، وهي التي تعكس الصورة الحقيقية لعاداتهم وحبهم للحياة الصحية والرياضية. وكانت تقوم بوظائف أخرى غير الاستحمام، إذ كانت مركزا للتدريب الرياضي وعقد الاجتماعات والندوات.

أما تصميم الحمامات، فقد كان ينقسم إلى ثلاثة أجزاء رئيسة على العموم، الجزء الرئيس مكون من بهو محاط بباقي وحدات المبنى، وفي الوسط غرفة دافئة توصل إلى غرفة ساخنة، وبجانبها غرفة المياه الباردة. وأشهر هذه الحمامات: حمام "كاراكالا"، وهو من أجمل هذه المباني، كان بهوه مخصصا لجميع غرف الاستحمام، ومحاطا بحجرات المياه الساخنة الدافئة والباردة. وتوجد في الخلف خزانات المياه، وعلى الجانبين صالات المحاضرات والمكتبات.

ويتقدم المبنى عدد من غرف استراحة للشعراء والكتاب والرياضيين (توفيق، 2000: 424). كما تقام أقواس النصر للأباطرة والقواد لتكون تذكارا لانتصاراتهم، أو تذكر بحدث تاريخي هام. علاوة على القصور والمساكن الفردية المخصصة للأسر الغنية مثلها مثل القصور، وهي تتوفر على صالة مربعة أو مستطيلة تتوسط المسكن، مضاءة من السقف، وبجوانبها الأربعة توجد غرف بدون نوافذ تطل على الخارج لتوفير الخصوصية (موساوي، 2011: 314).

وقد تأثرت العمارة الإسلامية بالطراز الروماني في كثير من العناصر المعمارية، منها القبة المجوفة، وهي تقنية كانت شائعة في العمارة الرومانية، وكذا الأقواس والأعمدة التي تمد البناية بالثبات والمتانة، إضافة إلى استعمال الرخام لزخرفة البناء من الداخل والخارج. أما المنازل الرومانية بصفة عامة، فهي تشبه في تصميمها المباني السكنية الإسلامية، حيث لا توجد بها نوافذ بالحائط الخارجي. وتنقسم إلى قسمين: الأول هو باب المنزل الموجود بواجهة الطريق، ويؤدي هذا الباب إلى ممر يؤدي بدوره إلى فناء المنزل. وأما القسم الثاني، فهو وسط المنزل، ويمكن أن يتكون

من حوض ونافورة، وبها توجد مرافق أخرى للبيت من غرفة نوم وأكل وغيرها (Join Learning, 2022).

ثانيا: تأثير العمارة البيزنطية في العمارة الإسلامية

بعد انتقال العاصمة الرومانية إلى القسطنطينية سنة 324م (Johnson et al., 2012: 148)، أصبحت الدولة الشرقية تتميز بالأسلوب الشرقي في معمارها، وأسهمت بشكل كبير في إنعاش الهندسة المعمارية بما أدخلته على كنائسها من إبداع في تشكيل القباب، ومن الابتكارات في طرق الإنشاء، حيث اتخذت أشكالا مختلفة عما كانت عليه في روما، فأصبح المسقط عبارة عن صحن مربع واسع، وفوقه القبة الرئيسة المحمولة على أربعة أذرع تشكل قبوا محاطا بنوافذ وشبابيك صغيرة (رانسيمان، 1997: 314).

وقد اشتهر المهندسون في ذلك العصر بالإبداع والتفوق في التكوين المعماري لهذه القباب مع بعضها، من كبيرة وصغيرة ونصف قباب، مما جعلها فريدة من نوعها على مر الزمن. وأهم ما يلاحظ أن أبراج الأجراس للكنائس لم تظهر في هذه المنشآت في ذلك العصر. أما الأعمدة، فكانت مكونة من قطعة واحدة من الرخام الملون، وتنتهي بتيجان من الرخام الأبيض.

وقد استعمل البيزنطيون الفسيفساء لتبليط الأرضية، وكذلك قطع الرخام الملون، كما كان يستعمل في العمارة الرومانية لكن بأحجام أكبر. كما زينت جدران الكنائس بلوحات من الموزاييك تعكس الحياة العامة أو حياة الإمبراطور وحاشيته. أما من ناحية المواد المستعملة في البناء والتشييد، فهم ساروا على نحو سلفهم الرومان، فاستعملوا الطوب والخرسانة في الجدران والقباب، مع تحديد استعمال الطوب للجدران فحسب، نظرا لثقل وزنه (توفيق، 2008: 21).

كما استعملوا نوافذ للكنائس، مستديرة القمة، وكلها مستطيلة وضيقة رغبة في التخفيف من ضوء وحر شمس المناطق الشرقية الساطعة. أما الجدران الداخلية للمباني الهامة، فكانت

تكسى بمواد زخرفية مصففة بانتظام على شكل ألواح من الرخام المتنوع وبمختلف الألوان، توضع فوق كل لوحة فصوص من الفسيفساء.

والملاحظ أن الفنانين المسيحيين الشرقيين لم يهتموا بفن نقش التماثيل الثلاثية الأبعاد بوازع ديني، إلا فيما كان يخص تماثيل الأباطرة، أو بعض النحت الخفيف البروز والذي لا يخرج عن كونه نواع أو فرعا من فروع التصوير؛ فبقي اهتمامهم منصبا على فن التصوير مع اتخاذ الظلال بديلا عن مؤثرات الألوان. واقتصر عندهم فن النحت على حجم المعيار الصغير، كالنحت على قطع العاج أو البرونز (Ebersolt, 1923: 165).

وقد تأثرت العمارة البيزنطية بما سلف من فنون غيرها من العمارة، مثل العمارة الإغريقية التي كانت سائدة ومزدهرة في بعض مدن الشرق عند نشوء الإمبراطورية البيزنطية كالإسكندرية وأنقرة وأنطاكيا؛ كما توحدت أغراضها مع العمارة الرومانية في فجر المسيحية بعد ما أصبحت العاصمة في القسطنطينية، وهذا حال الحضارات التي تتأثر ببعضها، إذ لا يمكن لأي فن أن ينشأ من العدم، فلا بد أن يستفيد الفن المستحدث من خبرات السابقين (معروف، 2007، 18). وقد تميزت هذه العمارة عن كل ما سبقها من طرز العمارة، حيث إنها جاءت دقيقة التفاصيل، وفيها تناسب بين النسب والجمال، غنية بالزخارف، منها المحفورة والمنقوشة، مع استعمال الألوان الزاهية الفائقة الجمال (توفيق، 2000: 391). وكان التأثير الفارسي الساساني واضحا وجليا (رانسيمان، 1997: 315)، حيث تزاوج هذان الفنان العريقان، وكان نتيجة تقابلهما ظهورُ الفن البيزنطي الأصيل.

وقد ساهمت الحروب الصليبية في احتكاك معماريين أوربيين بالعمارة الشرقية في العراقية والشام، وأخذوا منها استخدام الرخام الملون والزخارف العربية وأعمال الموزاييك والقباب الدائرية. ويظهر تأثير الموقع والمواد المستعملة جليا في المباني والمنشآت من حيث تشكيل الكتلة والحجم

والارتفاع، والنسب في المقاييس في الأبواب والنوافذ والقباب وسمك الجدران، وكذا قياس الجمالية. فعندما ننظر إلى الكنائس البيزنطية، نلمس مدى الاختلاف بينها من حيث شكلها الخارجي والداخلي، ومن حيث الرونق والجمالية بفعل القرب أو البعد من المناطق الحارة. فكنيسة "أيا صوفيا" تجدها ضعيفة الطرافة من المنظور الخارجي للبناية بسبب أنواع المواد المستعملة، ولوجودها في منطقة تغلب عليها الحرارة، غير أن جمالها وعظمة هندستها وفخامة زخارفها تمركزت في الداخل (توفيق، 2008: 247).

وبعدما تم نقل العاصمة البيزنطية من روما إلى بيزنطة (القسطنطينية)، نشأ عندئذ الطراز المعماري البيزنطي في العاصمة وشبه الجزيرة اليونانية والبلقان وأرمينيا. وكانت أغراضه كمثيله الروماني في فجر المسيحية، وهي بناء الكنائس، لكنه اختلف في استعمال مواد البناء والزخرفة، وأدخل نظام القباب متأثرا بالعمارة الشرقية المستعملة في بلاد فارس وغيرها. وقد اشتهر المهندسون في ذلك العصر بالإبداع والتفوق في التكوين المعماري لهذه القباب مع بعضها من كبيرة وصغيرة ونصف قباب، مما جعلها فريدة من نوعها على مر الأزمنة (توفيق، 2008: 15).

وهذا الاندماج والاختلاط كان له وقع في التأثير المتبادل بين العمارة البيزنطية ومثيلتها الإسلامية. وقد أخذت الحضارة الإسلامية عنها ما وصلت إليه من تطور وإبداع في تفاصيل كثيرة تجلت في عدة جوانب، منها استخدام القباب التي كانت من العناصر المعمارية الهامة التي تأثرت بها العمارة الإسلامية، وكذلك الأقواس والزخارف الهندسية المعقدة، بالإضافة إلى استخدام الخزف والزجاج في تزيين العمائر، فنتج عن هذه التأثيرات والمزجِ تراثٌ معماري وحضارة إسلامية راقية. وكانت القباب من أهم العناصر المعمارية الهامة التي تأثرت بها العمارة الإسلامية، حتى اكتسبت هذه الوحدات صورة عربية منفردة. وأثرت بدورها في عديد من العمائر الدينية والقصور لحضارات أخرى. وبعد دخول المسلمين إلى الأندلس، ظهرت ثقافة معمارية هي عبارة عن مزيج بين

الحضارتين الإسلامية والبيزنطية. وعُرِفَ ذاك النمط من الفنون المعمارية باسم "عمارة المُدَجَّنين". والمدَجَّنون هم المسلمون الذين لبثوا في شبه الجزيرة الإيبيرية بعد سقوط الأندلس، وقد بقي أسلوب المدجنين في المعمار كما في الفن وغيرهما مستخدما حتى أواخر عصر النهضة (Briffaut, 1919: 165).

الخاتمة

أظهرت هذه الدراسة أن العمارة الإسلامية لم تكن تقليداً أعمى لما سبقها من الحضارات، بل تشكلت من خلال تفاعل مركب بين عوامل دينية واجتماعية وسياسية واقتصادية وطبيعية، إلى جانب تأثرها الواعي بالحضارات السابقة كالرومانية والبيزنطية. وقد تبين أن العمارة الإسلامية استندت إلى فكر تشريعي وروح حضارية تُعلي من شأن الإنسان وتؤطر عمرانه في ضوء مقاصد الشريعة الإسلامية، الأمر الذي منحها خصوصية واستقلالية.

أبرزت النتائج أن الدين الإسلامي شكّل القاعدة الأساس في تشكيل المعمار الإسلامي، حيث انطلق من المساجد والمساكن البسيطة التي أسسها الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم تطورت بتطور المجتمعات الإسلامية في المشرق والمغرب. كما لعبت العوامل الاجتماعية، من ترابط وتكافل وتقاليد، دوراً بارزاً في نمط توزيع الأحياء وتخطيط المدن. وأكدت الدراسة أن الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي ساعدا في ازدهار العمارة المدنية والدينية، في حين أسهمت البيئة الطبيعية والمناخية في تشكيل الطراز العمراني وهويته المحلية.

إن ما يُنتظر من هذه الدراسة، هو أن تكون مدخلاً لإعادة قراءة العمارة الإسلامية من منظور شامل يتجاوز البعد الجمالي والزخرفي إلى البعد الوظيفي والإنساني والروحي. كما يمكن لمثل هذه الدراسات أن تسهم في تعزيز وعي المعماريين والمخططين المعاصرين بأهمية التفاعل مع عناصر

البيئة والهوية، وتقديم نماذج إبداعية مستمدة من العمارة الإسلامية، قادرة على التجديد دون الوقوع في التغريب أو القطيعة مع التراث.

لذا، فإن الحاجة باتت ملحة لتوجيه مزيد من الدراسات نحو تحليل أعمق للعمارة الإسلامية في ضوء التحديات البيئية والاجتماعية المعاصرة، واستثمار عناصرها الفلسفية والمادية في بناء عمران مستدام ومتجذر في الثقافة الإسلامية.

المراجع

القرآن الكريم.

بن إدريس، ع. (1982). *مجتمع المدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم*. الرياض: جامعة الملك سعود.

الأشعب، خ. (1982). *المدينة العربية* (ط. 1). القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية.

أكبر، ع. (1992). *عمارة الأرض في الإسلام* .جدة: دار القبلة للثقافة الإسلامية.

ابن بصال. (1955). *كتاب الفلاحة* (ترجمة: خوسي ماريا مياس بييكروسا، ومحمد عزيمان). تطوان: مطبعة كريماديس.

البوطي، م. س. ر. (1980). *فقه السيرة* (ط. 8). دمشق: دار الفكر.

توفيق، ح. ع. ج. (2008). *تاريخ العمارة والفنون في العصور الأولى* (الجزء الثاني). القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

توفيق، ح. ع. ج. (2000). *تاريخ العمارة والفنون في العصور الأولى* (الجزء الأول). القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

ثروت، ع. (1994). *القيم الجمالية في العمارة الإسلامية* (ط. 1). القاهرة: دار الشروق.

جواد، ع. (1993). *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام* (ط. 2). بغداد.

حمودة، أ. ي. (1987). *الطابع المعماري بين التأصيل والمعاصرة*. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.

حميد الله، م. (1985). *مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة* (ط. 5). بيروت: دار النفائس.

خضر، أ. أ. (2023). نحو الوصول إلى استراتيجية معاصرة لقياس التوافق البيئي للمسكن الإسلامي. *مجلة العمارة والفنون والعلوم الإنسانية*، *8*: 1-30. DOI: 10.21608/MJAF.2023.190531.2994

ابن الرامي، البنّاء. (1999). *الإعلان بأحكام البنيان* (تحقيق: فريد بن سليمان). تونس: مركز النشر الجامعي.

رانسيمان، س. (1997). *الحضارة البيزنطية* (ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد) (ط. 2). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

السراج، م. ح. (2017). العوامل المؤثرة في فن العمارة الإسلامية. *مجلة الاقتصاد الإسلامي العالمية*، *63*، 20-29.

سيمون، ف. أ. (1991). *أنظمة المدينة العربية*. بغداد: دار الحكمة للطباعة والنشر.

شافعي، ف. (1982). *العمارة العربية الإسلامية في مصر الإسلامية* (ط. 1). الرياض: الشركة العربية السعودية.

شاكر، م. (1988). *المدن في الإسلام حتى العصر العثماني* (ط. 1). القاهرة: مكتبة لسان العرب.

صفر، م. ع. (1985). *البيئة المناخية* (سلسلة قضايا بيئية). الكويت.

الطبري، أ. ج. (1978). *تاريخ الأمم والملوك* (ط. 2). بيروت: مؤسسة عز الدين للطباعة.

عابدين، ي.، وآخرون. (1914). *فيتروفيوس: الكتب العشر في العمارة*. أكسفورد: مطبعة جامعة أوكسفورد.

عثمان، م. ع. س. (1988). *المدينة الإسلامية* (سلسلة عالم المعرفة، عدد 128). الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

عزب، خ. م. (1997). *تخطيط وعمارة المدن الإسلامية*. قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، سلسلة كتاب الأمة.

عكاشة، ث. (1994). *القيم الجمالية في العمارة الإسلامية* (ط. 1). القاهرة: دار الشروق.

ابن الفقيه، أ. ب. الهَمذاني. (1885). *مختصر كتاب البلدان*. ليدن: مطبعة بريل.

فيفر، ل. (1970). *الأرض والتطور البشري*.

القحطاني، هـ. م. (2009). *مبادئ العمارة الإسلامية وتحولاتها المعاصرة: قراءة تحليلية في الشكل* . بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

القزويني، ز. ب. م. (2007). *آثار البلاد وأخبار العباد* .بيروت: دار صادر.

لوبون، غ. (2013). *حضارة العرب* (ترجمة: عادل زعيتر). المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي. (الأصل بالفرنسية، 1884).

مارتينث، م. ب.، ورويث برافو، ك. (1991). *أوروبا الإسلامية، سحر حضارة ألفية* (ترجمة: ناديا ظافر شعبان). بيروت: مؤسسة الفكر العربي.

محسن، خ. (1982). *في الفكر الاقتصادي العربي الإسلامي: دراسة في مقولتي العمل والملكية*. بغداد: منشورات وزارة الثقافة والإعلام.

محيي، خ. (1972). *في الفكر الاقتصادي العربي الإسلامي*. بغداد: دار الرشيد للنشر.

معروف، ب. (2007). *العمارة الإسلامية: مساجد ميزاب ومصلياته الجنائزية*. الجزائر: دار قرطبة.

الموسوي، م. (1990). *دولة الرسول* (ط. 1). بيروت: دار البيان العربي.

موساوي، هـ. ع. (2011). *العمارة وحلقات تطورها عبر التاريخ القديم* (ط. 1). الأردن: دار دجلة.

ناصف، س. (1999). *المدينة الإسلامية: دراسة في نشأة التحضر* (المجلد الأول، ط. 1). القاهرة: مكتبة الزهراء.

وزيري، ي. (2004). *العمارة الإسلامية والبيئة*. الكويت: مطبعة عالم المعرفة.

يحيى، م. م. م. (2019). علم الفلاحة عند المسلمين. *مجلة الدراسات الإنسانية والأدبية*، جامعة الإمارات العربية المتحدة، يونيو.

Ebersolt, J. (1923). *Les arts somptuaires de Byzance: Étude sur l'art impérial de Constantinople*. Paris: Ernest Leroux.

Klaina, Mekki (2024). Islamic Scientific Research: Its Importance in Serving Society and Mechanisms for its Integration. Al-Fadlan Journal of Islamic Education and Teaching. 2(2): 77-98. DOI: https://doi.org/10.61166/fadlan.v2i2.69

Lancaster, L. (2010). Parthian influence on vaulting in Roman Greece? An inquiry into technological exchange under Hadrian. *American Journal of Archaeology, 114*(3), 447–472. https://doi.org/10.3764/aja.114.3.447

Johnson, M. J., et al. (Eds.). (2012). *Approaches to Byzantine and its decoration: Studies in honor of Slobodan Ćurčić*. UK: Ashgate Publishing Limited; USA: Ashgate Publishing Company.

Briffault, R. (1919). *The making of humanity*. London.